الاستشراق الإسبانيّ و الاستشراق الغربيّ

خوان غويتيسُولو قارئًا مُخْتَلِفًا

مصطفى الكيلاني *

١- الثقافة الإسبانيَة: عبقريَة الجنون الخلاّق.

إسبانيا اليوم هي استمرار لإسبانيا الأمس، بلد الإبداع المدهش في مختلف الفنون. وليس أدلّ رَاهِنًا على العبقريّة الإسبانيّة في مختلف الفنون من أنتونيو جودي (Antonio Gaudi) النحّات الساحر المُقتدِر على نفخ الروح في الصخر وسلفادور دَالي Salvador Dali الرسّام المجنون، بسرياليّته الآسرة المربكة لِجميع الأشكال والألوان، حادثِها ومُمْكنها ومستحيلها أيضا.

ولأنّ الإبداع الإسبانيّ واحد عَدَدٌ بمختلف الوسائل والأساليب التعبيريّة فالكتابة الأدبيّة والاشتغال الفكريّ الملازم لها والمنفصل عنها في ذات اللحظة ضمن هذا المشغل البحْثِي وَجْهٌ آخر لِدَفْق ذلك الجنون الخلاّق، الموروث والناشئ، كأن تشي روايات خوان غويتيسولو (١) (Juan Goytisolo) ومقالاته الفكريّة الاستشراقيّة، والاستعرابيّة منها على وجه الخصوص، بالروح الإسبانيّة الكونيّة المتوهّجة المتجدّدة باستمرار، فتهتك ستر المخبّإ وتخترق مجال العري الدفين لتفضح عديد الإشارات الكامنة في ادّعاء «الصفاء الملائكي» المَحْض وطهارة العِرق ووُثوقيّة اعتبار الذات مكتملة مطلقا خلافا «لِنُقصان» الآخرس المورّوس، في التسمية الموروثة الشائعة ، أي العربيّ، ومُسلِم المغرب العربيّ، والمغرب الأقصى على وجه الخصوص.

٢- خوان غويتيسولو: سُؤال الاستشراق والاستغراب.

فبين الاستشراق والاستغراب يتنزّل حوار الثقافات من موقعنا الحضاريّ. إلاّ أنّ المصطلح - المفهوم المتداوَل طيلة عقود هو الاستشراق، ولا بديل له. وفي ذلك نَفْيٌ ضمنيّ للاستغراب الّذي هو حقيقة وجود فكريّ تتأكّد مصداقيّة تسميته بعديد القراءات التي اقترن وجودها بأسماء كـ إدوارد سعيد وهشام جعيّط ومحمد أركون ومحمد عابد الجابري وعبدالله العروي...

إنّ نصوص هؤلاء زاخرة بالأمثلة المساعدة على تثبيت هذه التسمية. ويتدعّم هذا الرأي عند استقراء النبرة المختلفة في صوت الآخر الغربيّ كمقاربة خوان غويتيسولو الاستشراقيّة الّتي يُحيل ضمنها على إدوارد سعيد وهشام جعيّط بصفة خاصّة، وبضَرْب من الحوار المفتوح القائم على النّديّة والاحترام المتبادَل والاحتكام إلى قيم التسامح الحقيقي الأنطلوجيّ بمختلف مراجعه الإنسانيّة، لا التسامح الشعاريّ المُؤدْلَج والمُوظّف في خدْمة أغراض عاجلة سياسيّة أوجَغرا - سياسيّة بمنظور ذرائعيّ (pragmatiqe) خفاء بشاعات الهيمنة والتحكّم في الآخر ومحاصرته وإقصائه والسعي الدائم إلى نفيه أو قتله حِسّا ومجازًا.

إنّ الاستشراق شأن الاستغراب نزوع في الاتّجاهين إلى فهم الآخر والنفاذ إلى صميم وعيه بِدافع الحبّ، لا الكراهية، وذلك بُغيَةَ التوصّل إلى وجود مشترَك لا تنفي الذاتُ من خلاله الذاتَ الأخرى، على أساس الاعتقاد في هويّة ديناميكيّة نسبيّة متغيّرة مشروطة بالتعدُّد الماثل في نواة الذات الواحدَة ماضيا وحاضرا

* أكاديمي تونسي، جامعة الوسط.

وإمكانا مستقبليًا.

٣- شرق / غرب: تَسْمِية تقريبيّة في مجال جغرا-سياسيّ مُتغيّر باستمرار.

لئن سبق الاستشراق الاستعمار العسكريّ المباشر للبلدان العربيّة والإسلاميّة وتزامَن معه فقد كان هو الآخر يُجسّد الوجهيْن معا، العِداء السافر للآخر أحيانا والتثاقُف المدفوع برغبة الحوار قصد فهمه والتعاوُن معه أحيانا أخرى. إلاّ أنّ الشرق مفهوم توارثه الخلف الغربيّ عن سلفه، وبه أنشأ منظوره الجغرا-سياسيّ الّذي استدلّ به استعمار بلدان الضفّة الأخرى للبحر الأبيض المتوسّط والبُلدان المجاورة العربيّة والإسلاميّة تحديدا، وانحصر، حسب التقريب، عند البدء في الشرق الأدنى وبلدان شمال إفريقيا والبلدان الإفريقيّة القريبة، في حين ظهر مفهوم آخر للشرق في طَوْر لاحق، وسّع من دائرة الآخر، فكان الشرق الإسلاميّ عامّةً، والشرق الأقصى بمُتعَدّد البلدان الآسيويّة ضمن تَمَثّل جديد جغرا - سياسيّ للعالم أعاد النظر في مفهوميْ الغرب والشرق منذ الحرب الكونيّة الثانية وأدخل على التمثُّل الجغرا- سياسيّ العامّ تغييرات أساسيّة خلال الحرب الباردة بين الولايات المتّحدة الأمريكية والاتّحاد السوفياتيّ ووُصولا إلى راهن العَوْلمة بعد انهيار الاتّحاد السوفياتيّ وتفكّك المنظومة الاشتراكيّة.

وبناءً على هذه الملاحظات البدئيّة يبدو الشرق مفهومًا متغيّرا، كالغرب تماما، إذ الشرق في تقدير إدوارد سعيد: «ليس حقيقة خاملة من حقائق الطبيعة. فهو ليس مجرّد وجود ثمّةَ، بالضبط، كما أنّ الغرب نفسه ليس مجرّد وجود ثمّةَ (...) إنّ الشرق، بقدر الغرب نفسه تمامًا، هو فكرة ذات تاريخ وتراث من الفكر، والصُور، والمفردات الّتي أسبغت عليه حقيقة وحضورًا في الغرب ومن أجل الغرب. وهكذا فإنّ كُلاً من هذين الكيانيْن الجغرافيّيْن يدعم الآخر، وإلى حدٍّ مًا يعكسه». (٢)

فكيف يتّفق الاستعراب والاستشراق ويختلفان؟ وكيف تتغيّر مفاهيم الاستشراق بتَغيُّر الوقائع الجغرا - سياسيّة من ثنائيّة الشرق والغرب، بمدلول المقابلة بين العالميْن المسيحيّ والإسلاميّ عَامّةً إلى ثنائيّة الشرق والغرب بمفهوم الصراع بين المعسكرين الرأسماليّ والاشتراكيّ ومنها إلى عَوْلمة الصراع والهيمنة بين بلدان الشمال الغنيّة المتقدّمة وبلدان الجنوب الفقيرة في راهن العَوْلمة؟ وهل يختلف الاستشراق الإسبانيّ تحديدًا عن غيره من الاستشراقات الأخرى؟ وهل هو في ذاته استشراق واحد أم واحد متعدّد؟

٤- غويتيسولو: الوجه الآخر المختلف للاستشراق الغربيّ، والإسْبانيّ تحديدًا

إنّ البحث في مقالات خوان غويتيسولو حوْل الاستشراق الإسبانيّ ضمن الاستشراق الغربيّ يُثير فينا حَتْمًا دهشة السؤال، لأنّ تناوُل هذا الروائيّ الإسبانيّ للموضوع يَبْدولأوّل قراءة أكثَر تَوَهُّجا ممّا اعتدنا عليه من مواقف مطمئنّة في الشائع من الدراسات الاستشراقيّة، كأن يُغيّر غويتيسولو بأسلوب لافت للنظر موقع التفكير بتحوُّله السريع من موقعه الغربيّ إلى المواقع الأخرى القريبة والنائية في المجاليْن العربيّ الاسلاميّ والإسلاميّ بمنظور كونيّ أصيل هو أبعد ما يكون عن افتعال الموقف الذرائعيّ قصد إخفاء التعصّب والعنصريّة واحتقار الآخر الشائعة في عديد البحوث الاستشراقيّة أو تجسيد الموقف المنتصر، صَراحَةً، لهيمنة المركزيّة الغربيّة وتأكيد واقع التخوم التابعة بالمفهوم الاستعماريّ «القديم» أو «الجديد» أو «العَوْلميّ» اليوم، بل يتّضح تفكير غويتيسولو مَوْقِعًا غريبا يكسر الحدود الفاصلة بين «نحن» و«الآخر»، حَسَبَ منظُومة المواقع التقليديّة. وليس الّذي نعتجه إسبانيًا مَحْضا بوعي المفكّر المبدع ذاته إلاّ بنية فكريّة تتداخل ضمنها مختلف العناصر الثقافيّة بحنين جارف إلى استعادة أهمّ هذه العناصر المتمثّل في الحضور العربيّ الإسلاميّ، ذاك الكامن في أدقّ خلايا الذاكرة والمِخْيال وتصوُّر الوجود، على غرار الإثبات الوارد في تصدير كتابِهِ «في الاستشراق الإسبانيّ» (٣)، على لسان جرترود شتاين :(Gertrud Stein) «حُكّ جلد روسيّ وستجد تَتَريًا، حُكّ جِلد إسبانيّ وستجد مُسْلِمًا».

ولأنّ خوان غويتيسولو يكفر بالهويّة المغلقة الساكنة ويُؤثر العودة إلى البدْء حيث الجذور الأولى لتأكيد أصالة الانتماء إلى حضارة الإنسان الواحدة المتعدّدة فَقَدْ أمكنه فكّ الشفرة لبعض حروف السلالة الأولى في بنية شخصيّته الإسبانيّة بمرجعيّتها الأندلسيّة، وفي انفتاحها الديناميكيّ الواقعيّ على المغرب وبلدان

شمال إفريقيا وكلّ من المجالَيْن العربيّ والإفريقيّ على وجه الخصوص بتركيبٍ يجمع ولا يُفرّق بين الاسم الإسبانيّ الغربيّ والتراث العربيّ الإسلاميّ والروافد الأخرى الإفريقيّة والإسلاميّة عامّةً، والآسيويّة برؤية كونيّة ترفض التعصّب لعِرْق على آخر ولثقافة أو حضارة على أخرى، وذلك باعتماد فكر حواريّ يرى «الأنت - الآخر» جُزْءًا من «الأنا» (٤) والـ «هو» ملازما لـ «أَنْتَ» القريب المندسّ وُجودُه في خلايا الذات المُفكّرة بتاريخ للذاكرة والوعي والحدْس الضارب بجذوره في القِدَم والفاعل في اللحظة، آنِ الوجود والتفكير.

٥- الاستشراق الإسبانيّ المتعدّد في منظور غويتيسولو

فكيف تتعدّد وجوه الاستشراق الإسبانيّ في قراءة غويتيسولو؟ ولِمَ ينزع إلى الاستعراب تحديدًا بتمثُّل خاصّ للموقع الواصل بين إسبانيا والمغرب العربيّ والمغرب الأقصى على وجه الخصوص في حين يكتفي بالإلماح إلى المواقع العربيّة والإسلاميّة الأخرى دون إفاضة ؟ كيف يُمارس نقد الذات الغربيّة والإسبانيّة منها عند فضح نوايا الاستشراق التقليديّ الجاثم بظلاله إلى اليوم على منظور الوعي الغربيّ للآخر العربيّ والمسلم عامّةً منذ سقوط حائط برلين وانهيار الاتّحاد السوفياتيّ وتفكّك المنظومة الاشتراكيّة وانقضاء الحرب الباردة؟ كيف يُجادل غويتيسولو العقل الغربيّ من داخل بنيته بهدف تفكيك نظامه والكشف عن المخبّإ العنصريّ الكامن فيه، بِضَرْب من التطهير الّذي ينطلق بدْءًا من الاعتراف بُوجود الآخر في الـ «نحن» وإقرار مبدإ الاختلاف الّذي هو أساس الكينونة بين فرد وآخر ضمن المجموعة القوميّة الواحدة أو بين قوميّة وأخرى في خارطة التعدُّد الإثْنيّ للعالم؟

إنّ الاستشراق، في تقدير إدوارد سعيد وبإحالة غويتيسولو عليه، «توزيع للوعي الجغرا - سياسيّ إلى نصوص جماليّة، وبحثيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة، وتاريخيّة، وفقه لغويّة، وهو إحكام، لا لتمييز جغرافيّ أساسيّ فحسب (العالم يتألّف من نصفين غير متساويَيْن، الشرق والغرب) بل كذلك لِسلسلة كاملة من المصالح..» (٥)

وبناءً على هذا المنظور الجغرا- سياسيّ المنفتح على الأنطولوجيّ (الوجود) والإبيستيمولوجيّ (المعرفيّ) والإجرائيّ، كَرَبْط الجهود البحثيّة الاستشراقيّة بخُطّة الهيمنة على مقدّرات الشرق الماديّة والفكريّة والجماليّة وحُسْن استخدامها في إدامة سلطة التفوّق يتّسع موضوع الاستشراق ويضيق، كما يأتلف القصد من الاستشراق بين طوْر وطوْر لاحق ويختلف نتيجة تغيُّر الوقائع والوضعيّات وتعدُّد الذوات القارئة في مَوقِع الذات الغربيّة أو الذات الشرقيّة.

لقد خدم إصرار الاستشراق قديمًا وحديثًا على تأكيد «الغرائبية الشرقية» و«عدم التسامح الإسلاميّ» وغيرها من الأحكام الجاهزة، في تقدير غويتيسولو، الاستعمار المباشر بالأمس، وهي أحكام تُساعد اليوم استعمار «الشركات المتعدّدة الجنسيّات» على ضمان استمرار هيمنتها وانتشارها في بلدان الشرق (٦)... لذلك استلزَم العقل الاستشراقيّ الغربيّ منذ بداياته الأولى الاستناد إلى تمييز مقيت يُقدّم الآخر الشرقيّ في صور عديدة قاتمة لتجير استعماره وبيان الحاجة إلى معرفته بُغيةَ الخروج به من وضع «التوحُّش» و«التخلّف» و«الانحطاط» إلى الحضارة والتقدُّم والسُّمُوّ.

٦- الآخر المسلم في المنظور الاستشراقيّ: ازدواجيّة الصورة

يستخلص قارئ نصوص الاستشراق الغربيّ، والاستشراق الإسبانيّ على وجه الخصوص، دون كبير عناء، ازدواج صورة الآخر الشرقيّ، إنْ لم نقل تعَدُّدها وتردُّدها بين الواقع والغريب، وبين الظاهر والمحتجِب، وبين المُعْلَن المتحرّر والمكبوت الدفين، كأن يسعى المخيال إلى تصويره على شاكلة شيطانيَّة أحيانا عديدة ويستمدّ منه في الاتّجاه الآخر أهمّ قُوى تَجَدُّده واندفاعه.

إنّ المسلم، على حدّ عبارة غويتيسولو، «مغربيًا كان أوتركيًّا وساراثين دُعِي أو مُورو (٧) ليَتَقدَّم في هذا المتخيّل بُوجُوهٍ عديدة، ويُثير تارةً الذعر والحسد طوْرًا، الشتيمةَ حينا والملاحقة حينا آخر. وهو في هذا كلّه يُغذّي طيلةَ عشرة قرون، أساطير الإسبان وأعمالهم الخياليَّة، ويُشكّل مصدر إلهام لِقصائدنا وأغانينا، وشخصيّة محوريّة لِرواياتنا ومآسينا، مُنعِشا أواليّات الخيال الإسبانيّ بقوّة.» (٨)

وعند استقراء الوجه ونقيضه أونقائضه يَبْدُو هذا

«المُورو» (المُسْلِم) بعضا من الأنا - الإسبانيّ، إذْ هو البشاعة تستبدّ بالذات الإسبانيّة بَدْءًا لينشأ عن ذلك الانهيار المُفجع، ثم يليه التحرّر والتخلّص من لعنة السماء واستعادة الطهارة الأولى.

كذا تنعكس الصورة المتناقضة لهذا المسلم في المنظور الاستشراقيّ التقليديّ لمانويل غارثيامورنتيه (Manuel Gracia Morente)، كأنْ يُصيب حضورُه الذات الإسبانيّة باللّوثة ويظلّ وجوده عالقا بالأصل، ملازما لَهُ نتيجة التواصل والتداخل والاختلاط.

وإذا عدنا إلى الأدب الإسبانيّ على امتداد قرون، حسب قراءة خوان غويتيسولو المختلفة للسائد الاستشراقيّ التقليديّ بدت لنا النصوص زاخرة بـ «الشتائم والنعوت القَدْحِيّة» لهذا الكائن الآخر (المُورُو) في مقاومة «المسلم الإسبانيّ»، فالمسلم التركيّ، ثمّ مُسْلِمي شمال إفريقيا.(٩)

فيحلّ الاستيهام الناتج عن تراكم الكراهيّة والمحبّة المتمازجيْن في شعور مزدوّج متناقض مَقام الحقيقة التاريخيّة لينعكس ذلك سَلْبًا في جُلّ الأعمال الاستشراقيّة على امتداد قرون، كأنْ يستقدم «الخيال الغربيّ عن الإسلام» تاريخ الفكر الغربيّ الخاصّ بالإسلام ويدفعه في اتّجاه تأكيد «التَمَرْكُز الغربيّ» و«صفاء الأصل» و«إرادة القوّة» العاملة على نَفْي العجز الحقيقيّ عن طَمْس وجود الآخر الماثل في الذات بعد أن ثبت أنّه «منذ ألْفُنْصُو العاشر المعروف بـ «الحكيم» حتّى أيّامنا هذه تَرَاكَمَ تراثٌ أدبيّ واسع هو وليد هذه الحاجة الّتي شعر بها الإسبان إلى امتلاك شجاعة داخليّة، وهذه الإرادة، الّتي أملتها بالطبع عوامل دِعائيّة وتبشيريّة في احتقار خصم جوانيّ غير قابل للتذويب والتشويه، لا سيّما وأنّ حضوره الّذي دام على الأرض الإسبانيّة قرونا عديدة بات يندرج في تجربة الإسبان الجماعيّة بالذات..»(١٠) وكأنّ النزعة التطهيريّة الغالبة على هذا التمثُّل حتّمت المُكابَرَة بنَفي العيوب عن الذات وإلصاقها بالآخر (المورو) بُغية إثبات التفوّق المطلق باعتماد أسلوب المقابلة بين الكمال والنقص، وبين «لجوهر الملاكيّ» و«الماهيّة الشيطانيّة»، وبين «المقدّس» و«المُدنّس».

وليس أدلّ على هذا التمثُّل من الصورة الجاهزة الّتي اجترحها شعراء «الرومنثيرُو» ومؤرّخوه، وزخرت بها الحكايات الأسطوريّة والتاريخيّة الّتي جمعها مينيديث بيدَال (Menéndez - Pidal) وعادت لتظهر بعد ثلاثة قرون و«تزدهر في ظلّ التقلّبات التاريخيّة للعلاقات الإسبانيّة السياسيّة والعسكريّة مع العالم الإسلاميّ».(١١)

إلاّ أنّ هزيمة المسلمين العسكريّة ابتداءً من القرن السادس عشر وتَنَصُّر الموريسكيّين(١٢) وتراجُع الثقافة الإسلاميّة عن الصدارة دفعت الإسبان إلى مراجعة موقفهم من الآخر، بل استحال «تبخيس» الآخر بَعْدَ زوال خَطَره ضربًا من التقديس، كَأهَالي قشتالة الّذين عبّروا عن إعجابهم بحضارة أولائك المهزومين «وبالبذخ الشرقيّ الساحر في تصميم الأزياء» والمباني المُتقنة المُنَمْنَمَة وأساليب العَيْش العجيبة والفروسيّة، وقد دفع ذلك شعراء كَ الباريث دي بياساندينو (Alvarez de Villasandino) إلى إبداع أروع قصائد العشق وأغانيه(١٣)، كما شاعت أغاني الرثاء تفجُّعًا على مصير المسلمين المنهزمين وتذكيرًا بأخلاقهم النبيلة على امتداد القرن السادس عشر (١٤). فاستحال بذلك الفصل بين الحبّ والكراهيّة، بين التبخيس والتقديس، كـ «طبيعة إفريقية» في منظور آلاركون (Alarc-n) الّتي هي وجهٌ للتوحّش بأدغالها العصيّة الاختراق، وهي مصدر الإلهام للشعراء (١٥).

كذا يسُودُ التذبْذُب بين احتقار «المورود»، على صعيد الواقع، والانجذاب إلى صورته الذهنيّة المُفخّمَة، جميع صفحات «يوميّات شاهد على حرب إفريقية» لآلاركون.

٧- إعادة النظر في مرآة الذات الفرديّة المبدعة: صِدقيّة الكتابة الروائيّة.

كيف حرص خوان غويتيسولو في رواياته الثلاث (١٦) على تجاُوز حال الفصام والتخلّص من ازدواجيّة الموقف تجاه الآخر (المورو) عند إعادة النظر إليه من خلال الذات المُبدعَة، بضرب جديد من التعايُش، وبالوقوف في موقع إستراتيجيّ» (١٧) مختلف عن السابق؟

إنّ تغايُر القراءات الخاصّة بهذا الشرق ناتجة في الأساس عن تعدُّد «المواقع الإستراتيجيّة».. لذلك يسعى غويتيسولو إلى تحديد موقع رؤيته للآخر بالرجوع إلى التراث الاستشراقيّ والاستدلال برواياته الثلاث على أساس افتراضات أربعة يُمكن إجمالها

كالآتي:

أ- **اعتبار الشرق «لوحة حيّة»** خلافًا لصورة «المسرح المُغْلَق» الّتي سادت منذ «أغنية رولان» الفرنسيّة وأغنية «السيّد» الإسبانيّة إلى القرنيْن الثامن عشر والتاسع عشر، ومرورًا بـدانتي و«الرومنثيرو».

ب- **الانتصار للواقع الفعليّ على النصّ** وللخبرة على الحكم المسبَق عكس «المحلّ الفكريّ» (١٨) (Topos) الّذي هيمن على حقيقة الموضع الجغرافيّ، لتتراجع بذلك «التجربة العيانيّة» أمام «الشبكة الواسعة من الرغبات والأحكام المُسبقة والاستيهامات ومشاعر الحرمان والخوف والمنافسة». (١٩)

ج- **إدراك واقع التجاوُر الجغرافيّ** والتهديد الّذي كان يُمثّله الإسلام (العربيّ والتركيّ) خلافا للبوذيّة أو البراهمانيّة وتأثير ذلك في اللا- وعي الأوروبيّ (٢٠). فيتأكّد، بما لا يدع مجالاً للشكّ، حضور الأنا- الإسبانيّ في الآخر (المورو)، حسَب التسمية الشائعة القديمة وحضور الآخر في الأنا - الإسبانيّ بعيدًا عن أتّون العداء المفتعَل نتيجة تغليب المثال على الواقع والحُكم الجاهز على حقيقة الوجود كما هي في اشتغال التواصُل والتأثير المشترك المتبادَل بين الغرب والإسلام.

د- **الدعوة إلى الحوار** ونبْذ الصوت الواحد الّذي يُشبّهه إدوارد سعيد بـ «مسرح ذهنيّ يُمارس فيه الجمهور والمُؤلّف والمُخرج والمُمثّلون أدوارهم لِصالح أوروبّا وأوربّا وحدها» (٢١).

وإنْ عُدْنا إلى قراءة خوان غويتيسولو للأدب الغربيّ على امتداد قرون، بَدْءًا بالقرن السادس عشر ووصولاً إلى القرن العشرين تبيّن لنا موقفهُ النقديّ الرافض للسائد في الاعتقاد الاستشراقيّ الّذي يكتفي باعتماد الشرق والإسلام صدى «لأنانيّة الكاتب وأثرها على جمهوره الأوروبيّ، سواء كان الأثر مُضيئا أو علَى العكس مُكرَّرًا لِمَا سبقه، وسلبيًا باعتباره يساهم في ترسيخ «الكليشيهات» و«الأحكام المُسبقة»(٢٢)، وذلك بمساءلةٍ عامّة تنبثق عنها الأسئلة الحادثة والممكنة: كيف نُحرّر الآخر الشرقيّ من التبخيس الّذي شاع قرونا في التمثُّل العامّ الإسبانيّ ضمن عديد الحكايات والأشعار والبحوث التاريخيّة نتيجة المنظور السلبيّ الّذي مفاده تأكيد بربريّة المسلم والمغربيّ تحديدًا

و«شذوذه عن المنطق ولا مبالاته وفظاظته وبهتانه المتفاقم»، إضافةً إلى الاستيهامات الزاخرة» بالحريم والعبيد والغلمان والأميرات والحُجُب والرقص الخلاعيّ والجنس المنفلت... (٢٣)

لقد أمكن لِخوان غويتيسولو في روايته «دون خوليان» تفكيك النفس الجماعيّة والنفاذ إلى مُتراكِم عُقَدِها بواسطة الراوي دون خوليان، والى الأسرة الإسبانيّة الّتي هي حاكمة المغرب، الهارب من كُلّيانيّة فرانكو، العائد إلى بلاده إسبانيا لِغزوها من جديد وحكمها لِمُدّة ثمانية قرون، بما يُشبه إعادة تاريخ الحكم الإسلاميّ لإسبانيا، ولكنْ بأسلوبٍ مُختلِف.

فيسعى غويتيسولو بواسطة المخيال السرديّ تحرير النفس الجماعيّة من أخطر الاستيهامات لدى عَدَدٍ كبير من المؤرّخين والشعراء الإسبان على امتداد قرون، كإرْجاع «الغزو الإسلاميّ» وتدمير «إسْبانيا المُقدَّسة» إلى جريمة جنسيّة اقترفها آخر الملوك القوطيّين عند ارتباطه غير الشرعيّ بابنة دون خوليان، حاكمِ على المغرب. لقد «كان إشباع الملك رودريغُو (...) شهواته الجنسيّة السبب المباشر للعقاب الّذي تمثّل في الغزوالإسلاميّ، والّذي شكّل للإسبان مَدْعاة للعار طيلة ثماني مائة سنة» (٢٤). فاستحال هذا الاعتقاد الأسطوريّ، الّذي شاع لدى عامّة الناسّ وتَدَاوَلَتْه ألسنة الرواة وانتقل إلى الأدب المُدوَّن شعرًا وقصَصًا، كتابةً روائيّة تُقارن، بضربٍ من التناصّ، بين سيرة الملك القوطيّ وآدم، وبين كَفّارة رُودْريغو (الملك الآثم) والأفْعَى، كأنْ تنتقل الغواية إلى عقوبة، في التمثّل الأسطوريّ الحادث. حينما قضى الراهب أن يظلّ الملك محبوسًا في مغارة بعد اعترافه بالذنْب، لِتنقضّ عليه أفعى بِرأسيْن كي تلتهم قلبه وعضوه الذكريّ في آنٍ واحِدٍ (٢٥).

إلاّ أنّ هذه الأسطورة، وإنْ تَوَقّف تناميها عند القرن التاسع عشر، فهي مندسّة في أعماق الوعي الإسْبانيّ، بل تعود لتظهر من جديد وتشتغل في تفسير الحالة الكارثيّة الّتي آل إليها وضع الحكومة الجمهوريّة، ورؤية الآخر، كصورة الريفيّين المغاربة العاملين في الجيش الإسْبانيّ وسحقهم انتفاضة عمّال المناجم في منطقة «الآستوريّ» الإسبانيّة عام ١٩٣٤ (٢٦). وبذلك يلتقي اليمين واليسار الإسْبانيّان في موقف واحد هو استثمار الدلالة الأسطوريّة المُتوارثة

المتراكمة رغم الاختلاف الإيديولوجيّ القائم بينهما، كأن يظلّ الآخر عُنْصُرًا شيْطَانيًا باستمرار في مُواجهة الأنا - الإسْباني النقيّ المتفوّق عقلاً وَرُوحًا وخُلُقًا.

كذا يحوّل غويتيسولو مجرى الحكاية الأسطوريّة ليُكسِبُ بذلك «الخيانة محتوى ديناميًا وإيجابيًا» بتثوير القيم القديمة والمهترئة وإكسابها محتوى جديدا وتذويب المغرب والمغاربة في المشهد الذهنيّ الموصوف سردا. «فالأفعى القمعيَّة والّتي تُمارس وظيفة «الإخصاء» في الأسطورة تستعيد قوّتها الإغوائيّة من جديد (...) أمّا الجنس فينهض بدَوْرٍ إحيائيّ مُنعِش وحيويّ...» (٢٧)

وبهذا التثوير القِيميّ ينتقل «الآخر» من موقع الغَيْريّة المطلقة الوهميّة إلى مدار الذات الواعية بِوُجودها ووجود الآخر مَعًا، بضرْب من التواصل المشروط بالتغايُر، ومن التغايُر المشروط بالتواصل حَدّ اندماج الواحد في الآخر أحيانًا عديدةً، لتهاجم الذات الساردة تراثها وتقوّضه من الداخل وتتعرّى به ومن خلاله وتفضح تناظمه الكاذب وتكشف عن فراغاته المستفحلة وتُعْلن تمرّدها عليه بخَلْخَلة ثوابته حَدّ الانتصار عليه بما هو نقيض كامن فيه، كأن يُدوّي صوت «دون خوليان» في أرجاء المشهد الحكائيّ: «إليّ يا فرسان الإسلام، يا بَدو الصحراء، أيّها العرب الغرائزيّون الأفظاظ، إنّني أهديكم بلادي بِكَاملها. اخترقوها؟ حطّموا كلّ شيء فيها: قُراها، مُدُنها، عَذَاراها. كلّ ما فيها إليكم يعود؟، هَدّموا هيكل شخصيّتها المتداعي، واعصفوا بأنقاض ميتافيزيقاها.؟ اهجموا هجمة جماعيّة كاسرة؟...» (٢٨)

وبهذا العصيان اللاّفت للنظر يستحيل وعي الكتابة انتصارًا للحريّة والتعدُّد والتغايُر والطبيعة والخطإ والخطيئة والحنين إلى نبْض النطفة الأولى على التدجين والتعصّب للواحد والتماثل وحضارة الشعور الدائم بالعظمة والتفوّق والصواب الكامل والورع وطهارة العقيدة المُثلى والعِرق الأسْمى. فتُوضع بذلك الذات على مِحَكّ تجربة الاختلاف كي ينزل المثال من عليائه إلى «حضيض» الواقع المكتظّ بِوَهج الرغبة ونقائضها.

كما يتأكّد هذا النزوع إلى التحرُّر من استيهامات ذاتٍ جماعيّة عنصريّة وتخليص الوعي الفرديّ من سجن العادة والرضوخ لأحكامها في «خوان بلا أرض» و«مقبرة» بانتقال حال الذعر من توحُّش الآخر وتهتّكه واحتفاله المُذهل بالجسد واللذّة الجنسيّة إلى إغراء، إذْ يستقرئ غويتيسيلو نزعة امتلاك الأوروبيّ لِ «جسد الآخر»، كالشائع على سبيل المثال في بعض كتابات فلوبير وأندري جيد حيث الوجه الآخر الاستعباديّ الّذي حَوَّل الآخر من شيطان للذّة إلى جسدٍ للاستهلاك الجنسيّ تَزَامُنًا مع المقاومة وقتل الآخر في طَوْر سابق، ومع الامتلاك والاستعمار في طَوْر لاحِق، كالّذي شاع في نُصوصِ مَنْ طَوّفُوا في أقاصي الشرق وأدانيه من شعراء وروائيّين ومؤرّخين غربيّين خلال القرن التاسع عشر على وجه الخُصوص. فَيُعلن الراهب إسلامه في «خوان بلا أرض» المسيحيّ امرأة مسلمة من حاشية ملك تونس، ويتراءى المغرب في «مقبرة» «منظورًا إليه من زاوية الاحتجاج الأخلاقيّ والافتتان الإنسانيّ والجماليّ النابع من تعاطُف المؤلّف وعلاقته الحميمة بالبلاد»(٢٩).

٨- الحُبّ في مغالبة استيهامات اللا- وعي الجماعيّ.

إنّ الحبّ ثابت دلاليّ في روايات خوان غويتيسُولُو، كأن يتسلّح به الروائيّ والمفكّر في مغالبة استيهامات اللاّ- وعي الجماعيّ الكامنة فيه والتحرّر من «جدليّة الغَيْريّة الّتي أنتجت الغرب المسيحيّ بمُواجهة الشرق المُسْلم».

وإذا الصراع المُفْتَعل والمدمِّر مع الآخر ليس إلاّ إخفاء لصراعٍ دفين واقعيّ، بدَلالة المكبوت في النفس الفرديّة والجماعيّة، وقد حدث إرجاؤه قرونا ليستعيد أُوارَهُ بحوار الأنا مع الأنت - الآخر الماثل فيه على غرار المعنى الوارد في قَوْل جرترود شتاين الّتي صَدَّرَ بها غويتيسولو كتابه «في الاستشراق الإسبانيّ»: «حُكَّ جلد إسبانيّ وستجد مُسْلِمًا». وعند إماطة اللّثام عن المكبوت الدفين أو المُحاصَر تنبجس الحقيقة بالمُساءلة الجريئة حيث الفكر النقديّ والقيمة الإبداعيّة يتعالّقان برغبة معرفة الذات والآخر مَعًا أو معرفة الذات بالآخر والآخر بالذات، فَيَجْرُؤُ خوان غويتيسولو على التساؤل: كيف نُغالب فينا «شيطانيّة» ادّعاء التفوّق بأكذوبة العِرْق الملاكيّ الأمثل تحت غطاء عَقَديّ أو إيديولوجيّ أو قَوميّ مّا؟ ألا يرتبط أيّ «نصّ

أدبيّ هامّ (...) بسلسلة واسعة من النماذج العائدة إلى أنواع وَحِقب وتقاليد أدبيّة مختلفة، وكلّما كانت الصلات الّتي تربطه بالمكتبة الكونيّة، على حدّ عبارة بورخس متعدّدة ووثيقة، كان عمله متعدّدا وثريًّا؟» (٣٠).

فتُعتَبَر الكونيّة، بدلالة انتماء الكاتب إلى «المكتبة الإنسانيّة»، السبيل الأوحد إلى مغالبة التعصّب والانغلاق وادّعاء التفوّق العِرْقيّ، كأن يتعمّد المفكّر المبدع لحظةَ إنشاء عمله نفي انتمائه الحضاريّ والثقافيّ الضيّق ليكتسب صفته الإنسانيّة بعيدًا عن أيّ استيهام في هذا الاتّجاه أو ذاك.

كَذَا هي «لوثة» الانتماء، نقيض العراقة الكاذبة وصفاء الدم، تجعل النصّ مُتعدّد نُصوص، والسلالة وريثة عديد السلالات، كَنَصّ خوان رويث حيث الأصوات الصوفيّة والوثنيّة في آنٍ واحد و«الحكايات الغراميّة والصراعات والمُؤامرات يتخلّلها الغناء والضحك والخلاعة والشتائم والآيات القرآنيّة والتهديد والوعيد». (٣١) فيتحرّر الكاهن «المتديّن الفاجر الخبير بشؤون اللذّة وصديق الحُواة والقوّادات العارف الجيّد بالنّساء» (٣٢)، كما يجمع الفقيه بين الورع والتهتك، كالشائع من الأحاديث الخاصّة به في المجالس العامّة وفي الأوساط الشعبيّة الإسلاميّة لبُلدان المغرب العربيّ والمغرب الأقصى تحديدًا، إنْ نزّلنا نصّ خوان رويث في سياقه المباشر. كما يَبْدُو نصّ ثربانتيس مسكونا بتأثيرات ثقافة الإسلام (٣٣) رغم عِدَائيّته المُعلَنة للآخر.

وليس أدلّ على عمق ذلك التأثير من بدايات نشأة الحكاية المُطوّلة، الوجه البدائيّ للرواية لاحقا.

ويزداد مجال الاستدلال اتّساعًا لدى غويتيسولو بالإحالة على بيريث غالدوس الّذي يُدين الحرب والصراع بين الإسبان والمسلمين ويُميط اللّثام عن إسبانيا أخرى بثقافاتها الثلاث، المسيحيّة والإسلام واليهوديّة، في نصّه الروائيّ «أيتاتيتاوين» (Aita Tettaun) حيث نقد الذّات للتخلّص من قيود العنصريّة المقيتة واعتبار الحرب ضدّ «المورو» حَرْبًا أهليّة مستمِرّة إلى اليوم على أرض إسبانيا (٣٤).

إنّ صورة «المورو» القبيحة هي انعكاس لِصورة الأنا-الإسبانيّ وليست واقعا لِوُجود الآخر المختلف كالسائد في الاعتقاد العامّ خلال العصريْن الوسيط والحديث وفي البعض من تاريخنا المعاصر.

٩- استشراق غويتيسولو تحديدًا: ثقافة الحوار والتسامُح، لا الاستعداء البغيض

كذا يُصْبح المشروع الاستشراقيّ المختلِف لدى خوان غويتيسولو استمرارًا لِنهج القراءة الجديدة الناقدة للذات المتمرّدة على الموروث العِدائيّ التدجينيّ بمزيد الغَوْص في ثقافة الإسلام والحرص الشديد على المصالحة بينها وبين الثقافة المسيحيّة عن طريق الحوار وإعلان ثقافة التسامُح والسعي الجادّ إلى تَفهُّم الآخر كما هو بعيدًا عن التضخيم والتبخيس والاستيهام المسبق، كالصورة الّتي يظهر بها الإسلام المتعصّب الشبقيّ في عيون الغربيّين والإسبان تحديدًا على أساس الإقرار الجازم بانتصار المسيحيّة للروح واحتفاء الإسلام بالجسد كي يظهر الصدام الحادّ بين تحريم المُتَع الجنسيّة في اتّجاهٍ وتشريعها في اتّجاه آخر حدَّ التحريض على العُزوبيّة مُقابل تشريع الزواج بأكثر من امرأة (٣٥)، كما تنقلب «جثّة المسلمين»، في المنظور العامّ المسيحيّ خلال القرون الوسطى، إلى «ماخور مُنَفّر».

وقد انعكست هذه الرؤية المشمئزّة للآخر المسلم (المورو) في كتابات بيدرو باسكوال (Pedro Pascual) (٣٦).

كَمَا انتقلت عَدْوى هذه الرؤية إلى فولتير في كتابه «محمد والتعصّب»، وتَرَدَّدَتْ بأسلوبٍ مختلفٍ عند الجزم بـ «الاستبداد الشرقي» لدى كلٍّ من مونتاسكيُو وهيجل.

إنّ ازدواجيّة الموقف الغربيّ تُجاه الآخر المُسلم بَعْضٌ من الحوار الّذي عَادَ ليظهر في ذاتِ غويتيسولو المُتسائلة الناقدة، ولكن بفِكْرٍ يستقرئ المتناظِمَ بمفهوم التعَدُّد ويكشف عن المنظور ونقيضه داخل النسق ذاته، لذلك سعى إلى تفكيك الوعي الاستشراقيّ لفهم عَدِيدِ تَناقضاته من خلال «الرحلة إلى تركيا» (١٥٥٧) لِكاتب مجهول زَارَ تُركيا وقضّى عامين أسيرًا في القسطنطينيّة، فوصف حياة المسلمين وقارن بين اللوثريّة والبربريّة والإسلام والكُفر، وكشف عن عقلانيّة الإسلام مقابل «ما يُرَافق البابويّة من تزمّت وروح خرافةٍ وتطيُّر». (٣٧) كما عاد إلى زرحلات عليّ بيكس (١٨٧١) لـ أدُولْفُو رِيفاديـنيرا

Adolfo Rivadenyra (٣٨) حيث شذرات من العنصريّة الدفينة واحتقار الآخر في الجانب الخاصّ بممارسة الحياة الجنسيّة لدى المسلمين.. في حين يبدو الإعجاب على أشدّه بالحجّ الّذي يجمع مختلف الأعراق ويُساوي بينها تحت راية عقيدةٍ واحدةٍ الّتي هي الإسلام.

فَبَيْنَ اتّهام المسلمين بالانحراف والفجور في حياتهم الجنسيّة والإعجاب بمَناسك الحجّ يُؤالف المشهد الموصوف لحياة المسلمين بين الرفض والقبول، وبين الكراهيّة والحُبّ.

وتتّضح ازدواجيّة الموقف الغربيّ تجاه الآخر تمامًا عند استقراء كلّ من فلوبير وريتشارد برتون، كأنْ يمتزج في نصوصهما التصريحيَّة الإعجاب بالاستهزاء، والقبول بالرفض، ليستبدّ المشهد الإيروسيّ لدى فلوبير بمُجْمَل صورة الآخر العربيّ، والمصريّ تحديدًا، ويتكرّر اتّهام برتون لهذا الآخر بالشذوذ الجنسيّ.

إنّ القصد المرجعيّ من استقراء التناقضات هو الكشف عن الخواءات المستفحِلة الكامنة وراء تَنَاظم المعرفة الاستشراقيّة وتَماسُكها المُخادع وفضح الخلفيّة العنصريّة الّتي تختفي لتظهر بعديد الأشكال والأساليب، كالتمركُز العرقيّ «في كتابات ماركس وأنجلز، حينَما يجمع ماركس، على سبيل المثال، بين الانتصار للاستعمار الأنجليزي للهند الّذي يرى فيه تَمْديثًا لهذا البلد وبين فَضْح جرائمه، وهو بهذا الارتباك المُقنّع وَرَاء سِتارة الإيديولوجيا السميكة يقتدي بالموقف الشائع لدى المستشرقين الفرنسيّين على وجه الخصوص ويُنشئ منظوره للآخر على أساس استيهاميّ رومنسيّ لا يمتّ إلى الواقع بصلات متينة مُباشرة. وإذًا إسقاط الفكرة الضمنيّة القائلة بالتمركز الغربيّ ماثل في كونيّة مُفتعَلة تتعمّد طمس الحقائق الخُصوصيّة للأوطان والقوميّات والثقافات. «فكثيرةٌ هي المُفْرَدَات الاحتقاريّة الّتي يستخدمها (كلّ من ماركس وأنجلز) عند وصفهما الثقافات والمجتمعات لأفرو-آسيويّة» (٣٩).

وإذًا المنظور واحد مشترك عند المقارنة بين مختلف الرؤى في الاستشراق الغربيّ، إذْ هو مُتراكِمُ أحكامٍ متوارَثَة منذ سقوط الأندلس. إلاّ أنّه منظورٌ محكومٌ في الداخل بالتوتّر والتعدُّد والتردُّد الحادّ أحيانا كثيرة بين التبخيس والتقديس، وبين الاشمئزاز والإغواء.

لذلك يلتفت غويتيسولو إلى تاريخ هذا المنظور عَبْرَ مُختلف أطواره لإدراك ثوابته ومُتَغيّراته، ويتحرّر في الأثناء من عديد الاستيهامات الّتي سادت الاستشراق الغربيّ، والإسبانيّ منه على وجه الخصوص، بالكشف عنها وتفكيك مقاصدها ونقدها. كما يستجير بثقافة كونيّة متعدّدة المراجع الحضاريّة والثقافيّة ليتخلّص من تأثيرات المركز الجاذب والحضارة الأمثل.

وبذلك يُدْرك الحاجة إلى تقويض المقابلة الضدّيّة بين الشرق والغرب، من خلال وعي الذات واستقراء الواقع كما هُوَ دُون تدخّل لأيّ حُكم مسبق أو حَدّ إيديولوجيّ جاهز، وبالاستناد أيضا إلى نصوص الاستشراق لإضاءة الجوانب الخفيّة من تصدُّعاتها وارتباكها الحادّ الدفين بين الحال والمختلف عنها وبين الموقف ونقيضه، إذْ ليس الغرب والإسلام بالضرورة «طرفي معادلة عنيفة» بل هما «إجابتان ممكنتان» للتعايُش في مواجهة «التقدّم» السلبيّ «المُبيد للحضارات والثقافات» (٤٠).

لقد أدرك غويتيسولو أنّ الشعوب الّتي تبلغ درجة عالية من التقدّم الماديّ والازدهار الثقافيّ، كالشعوب الغربيّة تحديدًا، تُصاب عادَةً بِفقدان الذاكرة وتتناسى آلام الآخرين، بل تسعى إلى إيذائهم، لذلك يعتقد أنّ للمُثقّف الغربيّ دَوْرًا فعّالا في تشغيل الذاكرة وإيقاظ صوت الحقّ في الضمير الغربيّ لِفضح مختلف الاستيهامات والكشف عن المُخبّأ العُنصُريّ المُعادي للآخر. فلاَ يَتردّد في الاعتراف بـ «أوروبيّته» الناقصة وإعلان التمرّد على شتّى المواقف العنصريّة وفضْح التَمَرْكُز الثقافيّ الغربيّ الزائف بنُزُوع جارفٍ إلى محاولة فهم الآخر بدافع حُبّ صادق يُقرّ التساوي بين جميع الأمم والثقافات ويدعو صراحة إلى إنشاء حوار جديد بين أوروبا والحضارات والثقافات الأخرى، وفي مقدّمتها الحضارة الإسلاميّة والثقافة العربيّة (٤١).

كَذا يَبْدُو صَوْتُ غويتيسولو عَاليًا مُجَلْجِلاً في دعوته الصريحة إلى الانتصار للإنسان بقطع النظر عن الجنس أو الانتماء الثقافيّ أو الحضاريّ، وللآخر المسلم والعربيّ على وجه الخصوص، الّذي هو جُزْءٌ من الذّات، المُتّصِل بها المُنْدَمِج فيها، لا المنفصل عنها.

وكما لقُوّة الذات معالمها البيّنة في واقع التغالُب

الموروث فإنّ للآخر الماثل في الذات وَهَنه الدالّ على الوجه الآخر. لذلك ينزع المفكّر الروائيّ إلى الاعتراف بأنّ الذات كُلّ مُتكامل مُشترك بين «الأنا» و«الأنت»، الماثل المندسّ في «الأنا» وما يعترض «الأنت» من خطر، خاصّ بـ «الأنا»، أساسًا. وبذلك يتزحزح معنى الغَيْريّة المُنفصلة عن الذات، كما يفضح الاستقراء الواقعيّ للعلاقة بين الأنا – الغربيّ والآخر – المُسْلم نزعةَ الاستعداء غير المبرَّرَة الكامنة في الضمير الأول: «إنّ تفوّق الغرب التقنيّ والعلميّ والعسكريّ الصارخ والّذي كشفت عنه بجَلاء مجزرة حرب الخليج الأخيرة، تفوّقه بالمقارنة مع عالم إسلاميّ مُنقسم، عاجز، رازح إلى الآن تحت موروث قُرونٍ متعدّدة من الاستعمار والخضوع لِأنْظمةٍ مُسْتبدّة (...) إنّ هذا التفوّق لَيُقرّب تهديد الإسلام من تهديد النملة للسبُع. ومع هذا فإنّ مناخ معاداة هؤلاء «المورسكيّين» الجُدُد وملاقتهم ما فتئ يزداد سوءًا». (٤٢)

١٠- هَجَانَةٌ أصيلةٌ مقابل طهارة العرق الأمثل:

إنّ الصوت – النشاز الّذي أحدثه غويتيسولو في الجوقة العامّة الغربيّة بتسليط الضوء على الذات في مرآة الذات بَدْءًا لادراك خلفيّة الاستيهامات الموروثة والحادثة، ثمّ بإعادة الموقف الراهن من الآخر المُسلم إلى جذور الاستعداء الأولى، على أساس استقراء الوعي واللاّوعي الجماعيَّيْن خروجٌ واضح جريءعن نهج التواصُل بإحداث الكَسْر والإبْدال في سلسلة القراءات الاستشراقيّة.

لقد اتّضح «للابن العاقّ» في شِرْعَة الأبوّة الغربيّة المستبدّة بالآخر العربيّ والمسلم تبخيسًا أو تقديسا أنّ الآخر اسم وهميّ إذْ لا معنى للغَيْريّة الضِدّيّة، بل إنّ الآخر بعضٌ من نواة الذات وأُفُقٌ في الاتّجاه السالف أو الحادث، كالنصّ المرجعيّ في بنية النصّ الناشئ. لذلك تتأكّد استحالة حُبّ الذات إن استبدّ شعور الكراهيّة بهذا الآخر الاستيهاميّ، كسلعنة السماءس تُضحي هُنا نِتَاجًا لتَنَكُّر الأخ لِأخيه، أو السعي الدائم إلى نفيه أو قتله، خلافًا للأسطوريّ الّذي يرسم تلك اللعنة على كَوْنها مُحَصَّلَ «تعالُق جِنسيّ مقيت» بين عِرق رفيع وآخر وضيع.

إنّ الحُبّ، بمنظور غويتيسولو، اكتشاف لِحُرّيّة الآخر الّتي بها تَخَلّصَ الأنا – الإسبانيّ والغربيّ عامّة من استعباد التعصّب الكنسيّ طيلة قرون. وإذا التوالُج في الآخر الّذي أمسى جزءًا من الذات، شأن أيّ عناق حميم، تقويض للهرم الجاثم على صدر الكائن وافتضاض لِكثافة المعنى الواحديّ الإطلاقيّ الرافض للعدد وإعادة قراءة «للّعنة الأولى» باعتبارها زواجًا مباركًا بين ثقافة وثقافة مختلفة استحالتا عند التلازُم العنيف والتعايُش الهادئ، تبعا لاختلاف الأطوار والوضعيّات، كِيانا حضاريًا مشتركا. إذْ كيف استطاع الغرب أن يقطع مع ماضي تخلّفه وتزمّته فأعاد للكائن البشريّ تَوازُنه باعتباره جَسَدًا لروحٍ وروحًا لجَسَدٍ بعد سيادة المعنى الروحانيّ المُطلق؟ كيف نزّل العقلَ في خارطة الجسد، وأطلق الجسدَ من أصفاد التدجين والتهميش، وشحَن الروح بإرادة الحياة إنْ لم يستضئ بحضارة الإسلام وثقافات شعوبه المتعدّدة؟

ولأنّ خوان غويتيسولو مُدْرك لهذا البدء المرجعيّ فهو يتعرّى بالقصد كي يُمارس طقوس مَنْ يَرْفُضون تحريف التاريخ وحقائق البدء وتغليب الاستثناء على الأصل.. وكأنّه بذلك لا يحصر الأصل والمرجع في أُبُوّة واحدة بعد أن استعان بسالمكتبة الكونيّةس واستقرأ سُلالته الأولى من خلال بطاقةٍ وراثيّةٍ تَصِل بين ما يظهر من ملامح مُعْلنة وبين ما يختفي وراء الجلد حيث صدى العروبة والإسلام وظلال التمْتمَات الشرقيّة والقباب الفخمة والشُرفات المُزهرة ومهرجان الفروسيّة وحكايات البطولة والحبّ في أزمنة تقضّت وتركت أحلامها بين الذاكرة والمخيال، وهي الفاعلة اليومَ وغَدًا.

فكيف يستبيح من آثر الاعتراف بسالهجانة الأصيلةس، لا «الصفاء الملائكيّ» و«طهارة العِرق الأمثل»، دَمَ الأب الآخر «مُمَثّلاً فيمن أسماهم «المورسكيّين الجُدُد»، كالّذي حَدَث في حرب الخليج الثانية وما حدث اليوم؟ أليس احترام غويتيسولو لثقافة الآخر المُسْلم تأكيدًا في الواقع لِمَدَى الاقتدار على الحُبّ عكس من أعلنوا مرارا وتكرارًا حبّهم الكاذب، من أصحاب اليمين وأصحاب اليسار على حدّ سَوَاء، من السلف والخَلَف، باستيهامات قديمة موروثة وأخرى حادثة تقطع في الظاهر مع سالفها أو تستعيد قرونًا من استعداء الآخر بالسعي إلى محاصرته وتهميشه أو محاربته بهَدَف تدميره وإفنائه؟■

الهوامش

١- ولد في برشلونة عام ١٩٢٩، روائي، منعت مؤلفاته في إسبانيا طيلة العهد الفرانكي، بحث في المكبوت الغربي.
وقد ترجم للمورخ بلانكو وايت (Blanco White) من الإنكليزية إلى الإسبانية، وهو الاسم المستعار لماريا بلانكو إي تسبو (١٧٧٥ – ١٨٤١).
٢- إدوارد سعيد، «الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء»، ترجمة كمال أبوديب، لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨١، ط٢، ١٩٨٤، ص ٤٠.
٣- خوان غويتيسولو، «في الاستشراق الإسباني»، ترجمة كاظم جهاد، المغرب: نشر الفنك، ١٩٩٧.
٤- إن «الأنا»، في واقع اشتغال الكلام، ضمير مزدوج، بمعنى أنا وأنت في بنية واحدة مشتركة.
انظر مقدمة غاستون باشلار (Gaston Bachelard) لكتاب «أنا–أنت» لمارتن بورر (Martin Bürer) فرنسا، أوبيي (Aubier)، ١٩٦٩. (بالفرنسيّة).
٥- إدوارد سعيد، «الاستشراق – المعرفة – السلطة – الإنشاء»، ص ٤٦.
٦- «في الاستشراق الإسباني»، ص ١٨.
٧- «هو الاسم الذي أطلقه الإسبان على المسلم المقيم في إسبانيا بعد فتح الأندلس، وتوسعا على المسلم عامة. ويختلف المؤرخون واللغويون في تحديد أصل المفردة. بعضهم يحيلها إلى «موريطانيا» التي كانت تشكل جزءا من المغرب، والبعض الآخر إلى قبيلة «الماوري» الذبرية. ولعل التخريج الأخير هو الأرجح، فأغلبية الفاتحين الذين رافقوا طارق بن زياد وموسى بن نصير كانوا من المسلمين البربر..»، من مقدمة كاظم جهاد لـ «في الاستشراق الإسباني»، ص ١٠.
٨- السابق، ص ٢٥.
٩- السابق، ص ٢٧–٢٨.
١٠- السابق، ص ٢٨.
١١- السابق، ص ٢٨–٢٩.
١٢- تسمية خاصة لمسلمي إسبانيا.
١٣- المرجع السابق، ص ٣١
١٤- نفسه.
١٥- «ففيها يكمن الممنوع والخطير والغريب والمجهول»، السابق، ص ٣٨.
١٦- «دون خوليان» و«خوان بلا أرض» و«مقبرة».
١٧- يحيل غويتيسولو في بيان دلالة «الموقع الإستراتيجي» على إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق».
١٨- من توظيفات إدوارد سعيد الاصطلاحية، وقد اعتمدها غويتيسولو.
١٩- «في الاستشراق الإسباني»، ص٥٠.
٢٠- يستند غويتيسولو في بيان هذا المفهوم إلى هشام جعيط.
٢١- السابق، ص ٥١.
٢٢- نفسه.
٢٣- السابق، ص ٥٤.
٢٤- السابق، ص ٥٥.
٢٥- السابق، ص ٥٧–٥٨.
٢٦- السابق، ص ٥٩.
٢٧- السابق، ص ٦٣.
٢٨- السابق، ص ٦٣–٦٤.
٢٩- السابق، ص ٦٧.
٣٠- السابق، ص ٧٠.
٣١- السابق، ص٧٩.
٣٢- نفسه.
٣٣- «إن رائعة ثربانتي» التي خطط لها مبدعها انطلاقا» من الضفة الأخرى، ضفة كل ما قامت به إسبانيا بإقصائه ونفيه، يظل بمقدورها أن تمثل، بين أشياء أخرى كثيرة، محاولة لتصور اختيار ثقافي ووجودي انتهى ثربانتي «إلى استعباده رغم ما كان هذا الاختيار يمارسه عليه من إغواء.»، السابق، ص ٨٤.
٣٤- السابق، ص ٨٦.
٣٥- يستدل غويتيسولو في هذا الحيّز الدلالي بالقرآن والأحاديث النبوية وابن حزم في «طوق الحمامة» والشيخ محمد النفزاوي التونسي في «الروض العاطر» والمتصوف المرسي ابن سبعين.
٣٦- أكد في «كتاب ضد ملة محمد» (١٩٢٨) على أن المسلمين هم من أكلة لحوم البشر.
٣٧- «في الاستشراق الإسباني»، ص ١١٩.
٣٨- عمل موظفا في إحدى القنصليات الإسبانيّة. رحل إلى المغرب، وطنجة تحديدا.
٣٩- السابق، ص ٢١٢.
٤٠- السابق، ص ٢٣٥.
٤١- انظر «أية أوروبة تريدون؟»، نص خطاب ألقاه الكاتب في نوفمبر ١٩٩٢ في مدينة ستراسبورغ الفرنسية أمام البرلمان الأوروبي الذي دعا اثني عشر كاتبا إلى إبداء آرائهم في أوضاع أوروبة آنذاك.
٤٢- السابق، ص ٢٥٨–٢٥٩.